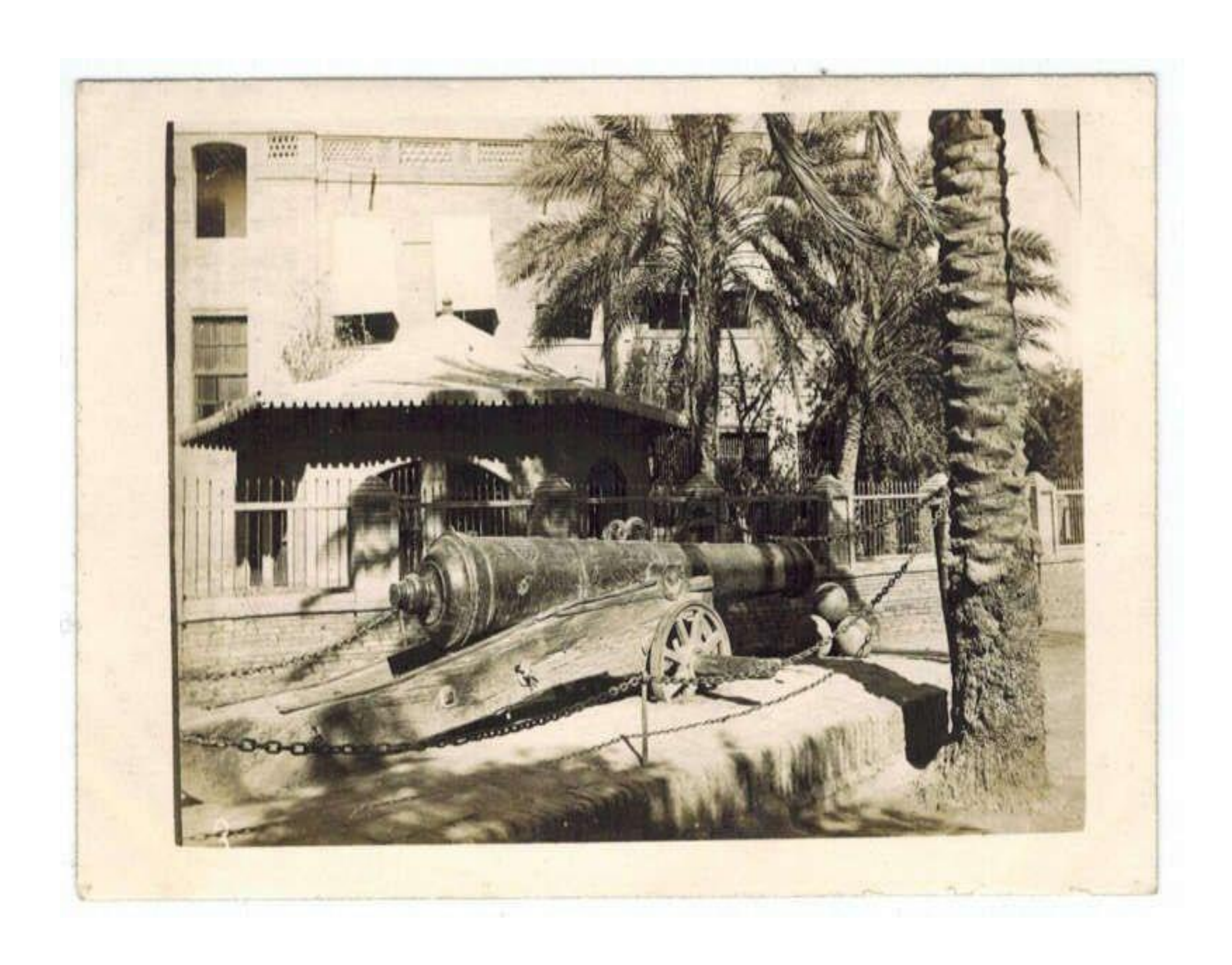
رسالة القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع



لعلامة العراق محمود شكري الآلوسي رحمه الله
تحقيق د. عروبة خليل إبراهيم وفقها الله

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة :-

الحمدُ لله الذي يَسَّر مَن اختارهُ لُنصْرَة دينِهِ إلى الدّرجاتِ العليّة َوَوَفّقَ مَنْ حافظَ على شِريعتَهِ الغَرّاء، ومحَجَتهِ البَيْضاء، فسبحانَهُ من إله رضي لنا الإسلامَ بِكمالِ منتَّهِ، وأَوَضَحَ لنا قَواعدَ دينهِ وملتَّهِ، والصـــــلاة والسلام على ســـيَّدنا محـــــمدٍ، الــذي أمـــــرِنا بإتـــــباع السُّـــــنَّة وأختار لنا من كلَّ أمرٍ أَحْسَـنهُ، وبالغ في الإنذار وإخلاص التوحيد وأجتهدَ في قصر العبادة على الملك المجيد وعلى آلـه وأصحابه الهادين بهدية والمتـأدبين بآدابه

امّــــــــــــا بعدُ :-

فهـذِهِ رسالةٌ سميـتها القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع، وأسأل الله تعالى أنْ يرفق بها النفع التـامَ لسائر أخواننا المسلمين الخاصَّ منهمُ والعامَ : فأقـول قال" الله تعالى :«وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَـقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا "وقال تعالى :«إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُـوا دِينَــهمْ وَكَانُـــــوا شِيَعًا لَسْت مِنْهُمْ فِي شَيْء إِنَّمَا أَمْرُهُـمْ إِلَى اللَّه ثُمَّ يُنَبِّــئهُمْ بِمَا كَانُــــوا يَفْــعَلُونَ، وروى العربـــــاض بن سارية الســـــــلمي عن النبي أنه قال: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشـدين المهديين، عضـوا عليها بالنـواجد، وإياكم ومحـدثات الأمـــور فإن كل محـدثةٍ بدعـــــة وكل بدعة ضـــــلالة وكلّ ضــــــلالةٍ في النار | رواه أبو داود والترمـــــــذي وقال : حديثٌ صحيح، ورواه ابن ماجه وقـــــال فيه قال: قـــــد تركتكم على البيـضاء ليلها كنــــــهارها لا يزيغ

عنها بعدي إلاّ هالك وروى أبو هريــرة قال : قال رسول الله، إنـــي خلفتُ فيـكم مالـم تضلوا بعدهـــــما كتاب الله وسنـــــتي ولنْ يفـــــترقا حتى يردا على الحوضِ| فَقَــدْ نَهَى الله تَعـــالى مـعَ رســــــوله عن آتبـــاع غير سبيلهِ وأمر بالتجنبِ عَنْ البِــــدَعْ ومحدثاتِ الأمـور، والفرار مـن الفـتن والشـرور :

فخـــــير امـورُ الديــــن ما كـان سـنَّة

.... وشر الأمــــــور المحـــــدثات البدايــــع

وقد كثرت البدع والأمر لله تعالى في زمانـــــنا، هذا حتى غدت البــــدعة متبعة مسـتحسنة والسـنة منـــــفورة غير متـبعة، ثم إن مـــــن البدع ما لا يمكن دفعها وإزالتـــــها إلى أن يحـــــكم الله وهو خير الحاكمين ومنها يمكن ولكن بعد **تحمل مشــــاق، وارتـــــكاب شدائدِ مــالا يطاق إلا إذ أعــــان على ذلك بعـــض أولي الأمر من الأمراء والعلماء الفضلاء الآمــــرين بالمـــــعروف الناهين عن المنكر، المتبعين سنة سّيد البشر، مثل حضـــــرة مشــــير العراق، ومن ألُبس من سندس رأفتـه ما رَقَّ وَرَاقَ، الــــذي لم يســـبق له في** الأعصر الماضية مثيل، ولم يــــشابهه في آلمـــــــاثر إلا قليل، فـوطَّـد ومَهَّد وأطلق وقَّيــــد، وأغمـدَ وجَـرَّد، وترك الأنــــام في فراش الأمـن نيام، وجعل الشــــاة مع الذيــــب كالحبيب مع الحبيب وأعــــاد الضعيف قـويّاً، والبغّي رديّـــــاً، معَ مزِيـد تَقوىً ودَيانه وعفَةٍ وصيـانة، وحلمٍ ووقــــار، وفتْـــكٍ وأقتـــــدار، أعنّي به ألمُشــــير الذي أشـــارَتْ إليه الجلالـةَ بالبنانِ، وميَزَتهُ الفخَامـةُ عن الأقرانِ حَضْرةِ الطودِ الأقـوم، هدايت باشا المفْخَمَّ، لا زال مُســــدَّداً

بالعـــــنايةِ الربَّانــــية، ولا بـــــرحَ مشمــولاً بالآلطـــاف الصمدّانية، وأنا أعرض إليــه، لا زالت المنن نهلة علـيه، إنَّ المدفع الذّي أمام القعلة المعـــــمورة ومسـكن الجند المنصورة، أيَّــــدهم الله تعالى وشـــــيّدهم ومكنهم من أعدائهم وسددهم وقد اتخـــــذه عوام المسلمين قبــــلة آمالِهم ومرجعاً عند نزول نوائبهم وأهـــــوالهم، فتـراهم يطـوفون حوله كما يطـوف الحجـــــيج حول الكعبـــــة المبجلة، وينذرون النذور كما ينذرون لله الغــفُور، ويتــــذللون إليه ويظهرون الخضوع، ويوقدون فيه السرج والشموع، ويعقــــدون بالسلسلة المـحاطة به، رقاعاً شتى ويلهجون بندبهِ، فما من مولودٍ يولدُ إلا ويأتون به إليه، ويكلوا أمر ذلك الصبي عليه، ويزعمون أنهـم إذا لم يأتـــوا بذلك المولود إلى ذلك المحل، أيســـوا من خيره وخـــاب منهم الأمل، كما كان يفعل عبــــدة الأصنام من المشركين الطـــــغام، وإذا نهاهم أحدٌ أتخـــذوا قولهُ فريّا واتخذوا مكاناً شرقياً، مع أنَّ ذلك المدفع الذي لا يضر ولا ينفع واقــــعٌ بين أمـــــلاء من المسلمين، وفي طريق كُـلَّ أحــــد من المارين، حتى لم يخف ذلك الأمرُ الخطر، بل علمهُ الكبيرُ والصغيرُ، والغفلةُ في مثل هذه الأمـــور، توجب في الإسلام، وهناً ويجلبُ على الدين المبين طعناً، فالمتمنّى من ذلك ألمُشير، والدستور الكبير، القائم على ساق الهمم والعزائــــم، ولا تأخذه في الله لومة لائــــم، أن يحول ذلك المدفع إلى محد، لايصلهُ أحدٌ من الناس، ولا يتمــكنون إليه من مساس ويروعهم من الوصول إليه، ويمنـــــعهم من الوفود عليه، لينال من الله الجليل، الأجُر الوافــر، والثواب الجزيل، وليقـتد بما فعل عُمر بن الخطاب : فقد أمر بقطع الشجرة التي بايع الصــــحابة تحــــــتها بيعة الرضـــــوان لمّا رأى الناس يتناوبونها، ويصلَّون عندها كأنها المســـجد الحرام

أو مسجدُ المدينة، وأبلغُ منَ ذلكَ ما رواه البُـــخاري، في صحيحه من طرفين : الأول :- عن عباس بـــن عبد ربيــــعة عن عمر أنه جاء إلى الحجر فقبلَّهُ وقال : إنيّ لإعلمُ أنكَ حجرٌ لا تضرُّ ولا تنفع ولولا أنـــــــــيّ رأيـــــت رســــول الله يقبــــلك مـــا قبــــلتك ،والثــاني: - عن زيــــد بن أســــلم عن أبــيه، قـــــال رأيتُ عُمر بن الخطاب يُقبِّلُ الحجر، وقـــــال : لولا أنيّ رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك. مع أنّ شــهادة الحجر لأصـــــل الإيمان والتوحيد ثابتة، كما روى عُمر : إن النبي : أستقبل الحجر ووضع شفتيه عليه يبكي طويلاً ثم ألتفتَ فــــإذا عمر بن الخطاب فقال :- يا عمر ههنا تسكب العبرات رواه ابن ماجه وروى مسلم عن أبن عباس أن النبي استقبل الحجر فقبّله، واستـــــلامه والبـــــكاء عنده لا يخلو ذلك عن حكـــمة، ولو لم يكن إلا أنَّــــهُ يمينُ في أرضه وشهادته لأهل توحـــــيده لكان يكفي في فضــــله، وذلك لا يقتضي اعتقادُ النفع والضرَّ، لا بطبعه ولا بقـــوته، فلا يُدعى ولا يُرجى ولا يتوكل عليه وشهادتُهُ وشفاعتُــــهُ ليستا بأفضل ولا أكمل ولا أتم من شـــهادة الرسل وشفاعتهُـــم، ومع ذلك لا يُعتُــــقدُ فيهُم الضّرُ ولا الأعطاء ولا المنعُ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذنِهِ﴾، فالحجر اولى بعــدم الاعـــتقاد فيه إذ الأمر كُـــلُّه لمالك الملك وهــــو الله، الذي خلق الرسل وفضَّلهم على سائر الخلق وخـلق الأرض وما فيها من الآيات الدالــــة على إلوهيـــــتة، وتفرّد بُمـــلك الضَّرِّ والنفع والأعــــطاء ،والمنع وأغربُ من ذلك ما روى خالد بن ديـــنار قال : لما فتحنا تتر وجدنا في بيت مال الهمذان سريـــــراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف فأخذنا المصحف وحملـــناه إلى عمر بن الخطاب، فــدعا له كعباً فنسخه بالعربيــــة فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأتــــهُ مثل ما اقرأ القرآن، قال خــــالد

فقلت لأبي العاليـــــة ما كان فيه، قال سيرتكم وأموركم، ولحون كلامكم، وماهو كائنٌ بعد، قلتُ : فما صنعتم بالرجل؟ قال : حفرنا بالنهار ثلاثـــة عشر قبراً متفرقة، فلما كأن باليل دفناهُ، وواسينا القبور كلَّها مـــع الأرض حتى لا ينبشوه، فقلتُ : وما يرجون منه، قال كانت السماء إذا حُبست عنهم أبــرزوا السرير فيمــــــطرون، فقلتُ : من كنتم تظنون الرجلَّ؟ قال : رجل يقال له دانيال، فقلت : منذ كم وجدتموه مات؟ قال : منذ ثـلاثمائة سنة قلتُ : ما كــــان تغير منه شيءٌ؟ قال : إلا شعيرات من قفاهُ، إنَّ لُحومَ الأنبياء لا تُبليها الأرضُ، ولا تأكلها السباعُ | ففي هــــــذهِ القصة ما فعلهُ المهاجـــــرون والأنصارُ من تعمية قبره لئلا يُفتنُ به الناسُ، ولم يبرزوهُ للدعاءِ والتبرِك به، فكيفُ يجُوز التبركُ بمثلِ هذا المدفع المصنـوع منْ نحاس وحديدٍ، وطلب النفعِ في جمادٍ لا يبدي ولا يعيد؟ فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبــــيراً، إذ التبركُ طلبُ البـركة وقصـــــدها من شيء ما من نفسه أو جعلُهُ سبباً في حصوله، فالأولَ اعتقادُ أغلبُ المتبركين من أهل هذا الزمان كما هو محـــــقّقٌ لمـــــن دقَّـــــقَ وحـــــقَّق مـــــن ذوي العـــــرفان والثاني هي ذواتُ الأنواط التي قال عنها اهُل العلم من أصـــحاب المذاهب الأربعة : أنظروا رحمكم الله تعالى أينما وجدتُمْ ســــدرةً أو شجرةً أو نحو ذلك يقصدها الناسُ ويعظـمهُا أحدٌ منهم ويرجونَ بسببها البرأ والشـــــفاء، ويضـــــربون بها الخرق ويعلقونها عليها فاقطعوها فإنها ذاتُ أنواطٍ، كمــــا روى ابو داود الترمذي عن أبي واقد الليثي قـــال : خرجنا مع رسول الله قبل حُنين ونحن حديثو عهدٍ بكـــفرٍ وللمشركين سدرةٌ يعكفونَ حولها بها أسلحتهمُ يقالُ لها ذاتُ أنواط، فمـــــمرنا بســدرةٍ فقلنا : يا رسول الله أجعل لنا ذاتُ أنــــــواط كما لهم ذاتُ أنـــــواطٍ فقال النبي وهــنا كما قالت بنو إسرائيل «"اجْعَلْ

لَنا إلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ"»، قال : إنّكم قـــــومٌ لتركُبن، سُنَنَ مَنْ كانَ قبلكم فإذا كان أتخـــاذُ هذهِ الشجرةِ لتعليقِ الأسلحة والعكوف حولها ليتبركوا بها وينتـــــفعوا بسببها يكون إتخاذها ذلك إلهاً مع الله مع أنهّم لا يّدعونها ولا يسألونها فما ظنَّك فيمن يدعُـــو خشباً أو حجراً أو حديـــداً أو يرجو من بركاتها، سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ، وقد كانـــــت العُزىّ شجرة سمرٍ بنــــخلةٍ لغطفان يعبدونها بدُعاتها لتشفعَ خاصةً لهم فبعث إليها رسول الله خالـــــد بن الوليد فقطعها بالفأس وهو يقول :

يا عُـــزىّ كُفرانكِ لا سبحانك .... إني رأيـتُ الله قـــد أهانك

فخرجت منها شيـــطانةٌ ناشـرةٌ شعرها داعيةٌ ويلها واضــــعةٌ يدها على رأسها فجعلَ يضربها بالسيف حتى قتلها وكذلك مناة صخرةٌ كانت لهذيلِ وخزاعة وقيل لتثقيف، وسُـــميتْ بذلك لمـا كأن يُمنى أي يُراقُ عندها الدّمّاء للتبركِ بها رجاءَ شفاعتها وأخذوا اشتــقاق أسمها من منى الله الأمر إذ قدَّرهُ، زاعمين أنَّ الله يُقدَّرُ لهمُ بشفاعتها واراقة الدماء عندها، ما ارادُوهُ وطلبوهُ ودَعوها لتشفع لهم فيه وهذا كلَّهُ عند اهلِ العلم غيرُ خفّيُ على أحدٍ مـــنهُم، ولَعمري إنَّ ما يفعلَهُ الآنَ عَوَامُ المسلمينَ وجَهَلتــهم في هٰذا المدفع ونحوٍ من تقبيل الجـــــدرانِ والتبركِ بالحيطانِ، فوقَ ما كان يفعلهُ الجاهليــــونَ في العُزّى ومناة، ويعملون اموراً تقشعَّرُ منها جلودُ المسلمين، وتذوبُ لها أكباد الموّحدين، ويتحركونَ بحركاتٍ مخالفة لما علـــــيه المـــــذاهبَ الأربعـــــة المجـــــتهدوَن في الـــدينِ،

الخاتمــة :-

نسأل الله تعالى المنّانَ أنْ يعيذنا منْ شرورٍ أنفسنا ومكر الشيطانِ ويوفقنا لما، يحبُّ ويرضى وأنْ لا يخيبنا يوم القضا، إنهُ على ما يشاءُ قدير، وبالإجابة جديرُ، وآخرُ دعْوانا أن الحمدُ لله رَبِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على ســيدّ الأولين والآخرين وعَلى آلهِ وصحبه أجمعين

تمت بحمد الله تعالى